هل؟!

محمد جبريل

هل؟!

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

هل؟!

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٣٨٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

العودة	٩
تكوينات رمادية	١٥
التحقيق	١٩
الرائحة	٢٣
تسجيلات على هوامش الأحداث بعد رحيل الإمام	٢٩
الأستاذ يعود إلى المدينة	٣٧
حدث استثنائي في أيام الأنفوشي	٤١
الطوفان	٤٣
القرار	٤٧
المستحيل	٥٣
هل؟! ...	٥٧

إلى الآتي ...

محمد جبريل

العودة

أهمل متابعة المضيفة، وهي تشرح خطوات الإنقاذ. تكرر الأمر في عشرات الرحلات بين القاهرة ومسقط، فبدا المشهد رتيبًا. ناوشته أحداث الأيام الأخيرة، فاطمأن إلى الحزام، وأسند مؤخرة رأسه إلى المقعد، وأغمض عينيه، مستعيدًا كلمات سعيد منصور، وهو يودعه على باب المطار: أعلم أنك حزين.

وهو يشد على يديه في مودة حقيقية: المغترب إذا استعد للعودة النهائية، لا بد أن يعتاد سماع تلك الكلمات التي عجزت عن فهمها!

أضاف ضاحكًا: أنت الآن كجندي تناساه زملاؤه بعد فك خيمته!

أنهى الإجراءات في آلية، وإن حرص على سؤال جندي الجوازات: هل تتيح لي تأشيرة المغادرة أن أعود إلى مسقط؟

قال الجندي، وهو يتأمل الختم الدائري: العودة من حقك بعد ستة أشهر.

تنهَّد في ارتياح، وتقدم إلى الباب المفضي للدائرة الجمركية. حين صارحه مصطفى قاسم، لمرأى الختم الذي شغل صفحة كاملة بخطورة الأمر، تساءل في دهشة: وهل فعلت ما يستحق؟

قال: الكفيل يملك إيداعك السجن بلا سبب.

التمع الغضب في بحلقة العينين.

شمله مصطفى قاسم بنظرة إشفاق: جريمتك أنك ارتديت ثيابًا في مستعمرة للعراة.

قال: هل يحاسب المرء على استقالته؟!

قال: يرى أنك أربكت العمل بالاستقالة في موعد غير مناسب.

قال: وما الموعد المناسب؟

– هو الذي يحدده!

– وتلك الكلمات الغريبة التي لا أستطيع فهمها؟

– لا يتحدث عنها سواك!

– أنت تتحدث بها أحيانًا.

– وهم! ... وأخشى أنك ضيعت كل شيء!

تعرف إلى الكلمات — للمرة الأولى — عندما فاجأه، في الغرفة الملاصقة، حوار بين حسين أبو طالب ورشاد سليمان. لم تكن الكلمات تعبر عن لغة أو لهجة، إنما هي حروف ألف سماعها، وإن تناثرت وتداخلت فبدت ككلمات متقاطعة. أرجع إلى همس الكلمات صعوبة وصولها — كاملة — إليه. لكن الكلمات تكررت في أيام تالية، ناوشته وشغلته بدت لغزا يستعصي على الفهم. وكان يغادر المكتب — بلا سبب حقيقي، ينطلق بالسيارة إلى طريق المطار، ربما طالت الرحلة إلى الرسيل أو فنجا. تذكر — ذات يوم — صديقًا يعمل بالتدريس في نزوي، فواصَل الرحلة، لكنه فضَّل العودة. قبل أن يصل إلى مشارف المدينة، لحقه نداء في شارع روي: الشمس لاهبة، فأين تذهب؟

أبان له السؤال أنه غادر البيت، دون أن يدرك — بالتحديد — مقصده. كانت الشمس في المنتصف تمامًا، فخلا الشارع من الظلال والمارة، فيما عدا هنديين افترشا مدخل بناية قريبة. قال في سرعة: مشوار!

– وأين سيارتك؟

– فضَّلت أن أمشي.

– ألا تخشى ضربة الشمس؟

هز كتفيه، وواصل السير.

سأل رشاد سليمان عن معنى الكلمات، فقال ببساطة: لا غموض ... أعطِ للكلمات انتباهك جيدًا!

هتف: لماذا يتغير الناس في الغربة؟

قال رشاد دون أن يزايل هدوءه: لعل التغير في داخلك أنت.

أضاف متسائلًا: أين كانت ملاحظاتك من قبل؟

استعان بيديه في التعبير عن المشكلة التي كأنها حياته: نحن نناقش الأمر إذا أصبح ظاهرة!

حاصره الضيق، فأحس بالاختناق. غادر الشقة التي كان اتساعها يقذف به في بئر الوحدة. مضى — بلا هدف محدد — إلى شارع روي، حتى نهايته. لم يأبه بالحرارة اللاهبة أو الرطوبة التي أثقلت خطواته. قبالة مسجد قابوس تأكد من اللافتة، وصعد البناية ذات الطابقين. كانت العيادة خالية إلا من المرض الهندي يطالع مجلة بالأوردية. أهمل الطبيب السماعة على المكتب، وسأل في اهتمام: هل زرت آخرين؟

قال: هذه أول مرة.

– مصري؟

– نعم.

– وأنا عراقي ... لي الآن عشر سنوات في مسقط.

– إني أقل منك بسنة واحدة.

– أصبحت — مثلي — مواطنًا عمانيًّا.

قال في تردد: لولا هذه المشكلة التي اقتحمت حياتي.

أعطاه الطبيب انتباهه. سأل واستوضح وناقش، واعتذر عن كتابة روشتة، أو تقاضي أتعاب: إني أكلمك بالعربية، وأنت تفهمني ... فأين المشكلة إذن؟

حيره الأمر تمامًا، فقرر تجاهله ... تناسى الكلمات، أهمل سماعها، أو تقصي دوافعها. اكتفى — لسماعها — بنظرات لامبالية، وشفتين تحرصان في مطهما على تأكيد معنى الرفض. المفاجأة أذهلته، لما تخللت الكلمات حديث الكفيل عن التصدير والاستيراد والبضائع التي تنتظر تحريكًا في ميناء قابوس ... تداخلت الكلمات في الحوار، وتعاظمت، فخلا الحديث مما يسهل فهمه. أخفق — للغضب الذي أطل من عينَي الكفيل — في تنفيذ قرار اللامبالاة. حاول الفهم والاقتناع، لكن الكلمات تراقصت أمامه في هستيرية واضحة. أحنى الرأس يأسًا، فصرخ الرجل: أنت لم تعد تصلح للعمل معي.

كأنه نزع الغطاء من قمقم المارد: إذن، فاقبل استقالتي!

كالهمس، أو انعكاسات الأصوات في الأودية، وقيعان الآبار، تناهت الكلمات إلى أذنيه. هز رأسه غير مصدق، ثم عاود التأكد. كان يقينه أن ما حدث في مسقط قد انتهى بإقلاع الطائرة، لكن التلاغط حوله، ذكَّره بمطار «السيب»، وإن بدا الآن أكثر وضوحًا، ونأيًا عن الفهم.

فاجأه ضابط الجوزات بتلك الكلمات المدغمة، التي لا تنطوي على أي معنًى، ويصعب فهمها. ليست العربية والإنجليزية ولا الفرنسية، ولا هي مفردات لغة بذاتها. مع ذلك، واصل الضابط الحديث، ترافق كلماته تلويحات بإصبعه، كأنه ينذر، ولعله يهدد قال: لا أفهم!

طق في عينَي الضابط شرر، وتعالت الكلمات، وانفرجت الأصابع، يلوح بها في غضب واضح.

ثنى نظرات الاستغاثة إلى الواقف خلفه: شاب في حوالي الخامسة والعشرين، ارتدى بالطو بياقة من الفرو، فبدا مهرجًا في الحر القائظ. ربما قدِم من الأردن أو العراق، العاملون في الخليج يحرصون على الريكوردر والسامسونايت. أرخى جفنيه كأنه يتهيأ لنوم ... المؤكد أنه استمع إلى الكلمات، فقد استلفتت انتباه الواقفين في الصفوف المجاورة، وإن لم تغادر الصفوف انتظامها، وعاودت النظرات اتجاهها إلى النوافذ الزجاجية لكن الشاب ظل على هدوئه، كأنه قد وعى الكلمات. أحس بالاختناق والمعاصرة، فثبت نظرات اللامبالاة، وربما الرفض، على الضابط الذي كوَّر جواز السفر في يده، كأنه سيمزقه. اختار الوقوف على نقطة الصفر؛ لينهي الأمر على نحو ما، تساوت لديه البداية والنهاية، وردود الأفعال مهما كانت قاسية. أذهله أن الكلمات — على شفتَي الضابط — ذوت بلا توقُّع، هدأت العاصفة بلا مناسبة، وفرد جواز السفر أمامه، ثم ختمه، ودفعه إليه من الخصاص الضيق.

غادر الطابور كمذهول: ما معنى الذي يحدث؟ هل هو حلم أم كابوس أم أن التعب أجهده؟ لكن الحياة — داخل المطار — على الصورة التي ألفها من قبل: الناس هم الناس، اللافتات هي اللافتات، نداءات الاستعلامات هي هم وإقرارات العملة والسيور والأسواق الحرة والمتابعون لوصول الحقائب والحقائب المتخلفة والذين بلا عمل.

بدا مغايرًا للمرات السابقة: مجموعة من السائحين الإسرائيليين، ينتظرون حقائبهم. تأمَّل الاسم ورقم الرحلة ٥٧٦ تل أبيب. تل أبيب؟! شمل المجموعة بنظرة جانبية — بدوا سعداء، يتضاحكون، وإن علت في أحاديثهم تلك المفردات التي عجز عن فهمها.

عاد إلى قراره القديم، فهز كتفيه، واتجه إلى العربات الحديدية، سبقه شاب يناهز العشرين، سحب له عربة، وشفتاه تلوكان الكلمات الغامضة المدغمة. دفع العربة إلى موضع «السير» دون أن يلتفت إلى الشاب، أو يناقشه في كلماته. كان القرار قد سيطر على تصرفاته، فهو لا تعنيه تلك اللغة، اللهجة، الكلمات الغريبة المتناثرة.

اطمأن إلى وقفته، بحيث استند إلى العامود المواجه لسير الحقائب، تنبه على لكزة في جنبه، تبعتها الكلمات المتناثرة الغامضة. تجمع رد الفعل في صر أسنانه، وتكور قبضته. ثم آثر — بالإرهاق — أن يخلي مكانه للجسد الضخم الذي تشاغل — من بعد — بالمناداة على آخرين.

طالبه مأمور الجمرك بالاسم والمهنة وجواز السفر.

– من أين؟

– مسقط.

– آخر رحلاتك؟

– أعمل في مسقط ... لكنني دائم التردد على القاهرة.

– تاجر شنطة إذن؟

لو أنه روى عن الباعث الحقيقي! ... كان يحجز تذكرة العودة في اليوم التالي لوصوله إلى مسقط. أتعس اللحظات حين يغادر التاكسي في مطار القاهرة ويخطو إلى باب الدخول. أسعد اللحظات حين يعلن المضيف عن التحليق في الأجواء المصرية. أدهشته الدمعة التي ذرفها — بالرغم منه — لما أطل على الناس — وهو ينهي أوراقه من نافذة مرتفعة في مجمع التحرير. كان يحرص على قراءة الصحف، يناقش القضايا البعيدة كأنه يحياها، يسأل ويناقش ويقترح ويرفض، يصلي الجمعة في مسجد أبي بكر الصديق الذي يرتاده المصريون، يزور ويزار ويودع ويستقبل في مطار «السيب»، يستوقفه اختلاف اللهجة والتصرفات والتكوين الجسدي — كان يراهن على الطيف القادم في الظلام — يهلل للشوارع والميادين والشواطئ والأبنية، إذا طالعته في التلفزيون: المراكب الصغيرة في شاطئ الأنفوشي ... زحام شارع الغورية ... لعلها مئذنة الحسين ... من هذه الأشجار فهي الاسماعيلية ... بورسعيد تخلو من البمبوطية، فهؤلاء إذن من السويس ... إنها مستودعات البترول في مدخل الزقازيق ... حل الصيف، فجمهور استاد القاهرة يرتدي القمصان.

تعلو عبارات الضيق من ملاحظاته ... يهز كتفيه — أحيانًا — فلا يأبه، أو يهمس كالمعتذر: لقد تذكرت!

فاجأته الكلمات الغامضة، حين شرع المأمور مطواته، وبدأ في تقليب الحقيبتين. لم يكن أعد نفسه للرحيل، فخلت الحقيبتان إلا من ثيابه ... لكن المأمور أفرغ حتى الكروت السياحية على الطاولة، كأنه يفتش عن شيء بذاته. أصم أذنيه بإغماض العينين، حتى انتبه على هتاف المأمور: مع السلامة!

من داخل التاكسي، ذكر للعسكري الاسم والجهة. تشاغل بتأمل القاهرة من النافذة المفتوحة: ماذا يخفي هديرها الزاعق؟ علا صوت السائق بكلمات من نوع: حمد الله على السلامة ... العالم زحمة ... الحر اليوم زائد ... ثم تداخلت الكلمات — هي هي بالتأكيد — في قوله: أين روائح السفر؟ زاد تشاغُله بالتأمل ... فكادت جبهته تلامس زجاج النافذة المغلق. دانت الغلبة — فيما بعد — للكلمات القافزة، تحاصره، تستفزه، تدفعه إلى امتصاص السكينة بإغماض العينين ... لكن البركان انبثق من الأعماق، ثار وتلاطم وتصاعد، فهتف كأنه يواجه الموت: اسكت!

لمح البواب يفاصل زبونًا، أمام الفاترينة الصغيرة في مدخل البيت. ناداه باسمه، وأشار إلى الحقائب ... تعمَّد أن يسبقه إلى مدخل البيت، حتى لا يلاحقه — من يدري؟ — بالكلمات المجهولة. كأنما الناس استبدلوا ما عرفوه من كلمات، بتلك المفردات المحيرة، كأنه يخالط ناسًا وهميين، يحيا في غير الزمان، يهذي ويعانق خيالات. لاحقه البواب بالكلمات التي ألفها، وإن لم يفهمها. أهمل الالتفات، وصعد السلالم عدوًا. أطال الوقوف لحظات أمام باب الشقة: هل تفاجئه أمه بهذه اللهجة؟ فكيف يواجه الأمر؟ وماذا سيكون عليه تصرفه؟

قاوم التردد، وضغط الجرس. لم يرفع إصبعه حتى انفتح الباب. بدت أمه شعثاء الشعر، تفصَّد العرق في جبهتها. بيدها سكين، فهي لا بد قادمة من المطبخ ... اتجهت عيناه إلى شفتيها، ترقبان الارتعاشة التي تسبق الكلمات.

انفرجت الشفتان عن صيحة فرح: أنت؟!

ارتمى في حضن أمه، وأجهش بالبكاء.

(مجلة أكتوبر، أكتوبر ١٩٨٥م.)

تكوينات رمادية

مددت يدي بعفوية، وأضأت النور. كنت قد صحوت على أذان الفجر يتناهى من المرسي أبي العباس. أطلت التحديق في الظلام السادر، أتبين الشبح الواقف وراء النافذة، يتطلع إلى الطريق. بدت المفاجأة في ملامح وجهه أقرب إلى الخوف، وربما الفزع. هلل بيديه، فأطفأت النور: قلت، وأنا أزيح الغطاء عن جسدي: هل تنوي صلاة الفجر في المسجد؟

قال في همس منفعل: أي صلاة؟! ... وهل يتيح لي الملاعين أن أصل إلى المسجد؟!

فطنت إلى ما يعنيه. حدثنا — إخوتي وأنا — عن متاعب — لا يدري بواعثها — بدأت إدارة الشركة تواجهه بها، حين أعلن رغبته في التقاعد، الخواجة ليفي (سافر فيما بعد إلى إسرائيل، ضمن الأفواج الأولى لليهود المصريين) أظهر قلقًا واضحًا. تمعَّن في وجه أبي، كأنه يستوضح نواياه. قال وهو يتظاهر بترتيب الأوراق على مكتبه: أرى صحتك ممتازة ... فلماذا تتقاعد؟

سعل أبي — بالتذكر — وأسند راحة يده إلى صدره: هدني الربو ... ولا بد أن أنفذ نصيحة الطبيب بالراحة التامة!

– اكتفِ بالعمل معنا ... وأعدك بزيادة راتبك.

– صدقني مطلبي الراحة وحدها!

روى أبي ما حدث، دون أن يشير إلى ملاحظة ما. لكنه — في الأيام التالية — حدثنا عن الأوراق التي اختفت من مكتبه، والبرود القاسي في معاملة الخواجة ليفي ومعاونيه، واعتذار الصراف بالمرض حتى لا يتقاضى راتبه. علا الإيقاع وبدت التطورات مثيرة عندما فاجأنا أبي — ونحن حول الطبلية ننتظر عودته — بخطوات متعجلة، ووجه يكسوه قلق واضح. وضع الصحيفة وكيس البرتقال على المائدة، وعاد إلى الباب يستوثق — أعلى السلم — مما رآه. لم أكن رأيت أبي في تلك الصورة من قبل. تنقل — بعينين مرتعشتَي الأهداب — بين باب الشقة والنافذة المطلة على المنور ولوحة الكانفاه المعلقة في الجدار،

وحركة مفيدة. داخل المطبخ، تعد الطعام، ونظراتنا القلقة، والقط السيامي الذي أقعى تحت الطبلية. غلب التوتر محاولته لعناق السكينة. جلس على الكنبة الاستامبولي. أطال التحديق في اللاشيء حوله. في اللحظة التالية، تبدد السهوم، فانتفض، ووقف، ودار حول نفسه وتحركت شفتاه بكلمات لم ينطق بها.

أزاح له نافع وشاكر مكانًا بينهما، فجلس. أمسك بيديه طرف الطبلية، كأنه يهم بقلبها: هل رأيتم ما رأيت؟

تطلعنا بأعين متسائلة: الخواجة ديفيد — مساعد ليفي، يختبئ في بئر السلم!

قلت في ضيق: ولماذا تتصور أنه يختبئ؟ ... ربما يريدك في ... أمر ما؟

– أنت لا تفهم شيئًا ... منذ أيام أتابع تنفيذ المؤامرة.

– ضد من؟

– ضد أبيك!

أغضبه — وإن لم يعلن — تنهدة أخي نافع غير المصدقة. استطرد وهو يهش — بعصبية — ذبابة حطت على أنفه: صدري مليء بالأسرار ... وهم يخشون أن أذيعها.

تغلف صوته بحشرجة قاسية: لقد قرروا قتلي!

لزم أبي البيت، بعد أن تسلَّم مكافأته. يكتفي بالتنقل بين غرفته والصالة، ويشغل نفسه بمراجعة قواميس الإنجليزية والفرنسية ويدون جملًا وملاحظات.

لمجرد الرغبة في قطع الصمت الذي كان يعمقه مضغ أفواهنا للطعام، سألت أبي.

– لقد تقاعدت عن مهنة الترجمة. فلماذا تقسو على نفسك بالمذاكرة؟

قال في استغراب: التقاعد لا يعني أن أهجر اللغة.

وعلا صوته في تغير مفاجئ: إذا نسيت اللغة، نسيت كل ما أعرفه من أسرار. وهذا ما لن أمنحه لهم؟

وصرخ في نظرتي الداهشة: أنت لا تفهم شيئًا ... المهم أن أرد المؤامرة!

تغيرت حياتنا. خطوات أبي الزاحفة بين غرفة النوم والصالة، تخوُّفه الواضح من رنين جرس الباب، تطلُّعه القلق — في لحظات متقاربة — من خصاص النافذة، شروده الساهم وحديثه المفاجئ إلى نفسه أحيانًا. لم يعد تشغله المذاكرة، أو مشكلاتنا الشخصية. تناسى حرصه — منذ وفاة أمي — بدس السندويتشات في حقائبنا كل صباح قبل أن نغادر البيت. شاع حولنا ضباب غير مرئي، وغلب التوتر على تصرفاتنا، وقال نافع.

– ينقصنا حفل زار لنعيد هذا البيت إلى سابق عهده!

في تلك الليلة، صحوت على حركة أبي خلف النافذة. أطفأت النور، وأزحت الغطاء عن جسدي. حاولت أن أهبط إلى الأرض برفق، فلا يصحو إخوتي. أحس بصدري خلف ساعده، فقال في صوته الهامس، يشير إلى المجهول من خصاص النافذة المغلقة: هذا الذي يقف تحت عامود النور ... إنه الخواجة ليفي نفسه!

قلت، وأنا أحدق في الرجل الغائب الملامح: هل البالطو الأصفر مما يرتديه الخواجة ليفي؟!

– أنت لا تفهم شيئًا ... إنهم يحسنون إخفاء أنفسهم ... لكن هذا الواقف هو الخواجة ليفي بعينه!

أحسست — لخوف أبي — بإشفاق. بدا مهدودًا ومتحيرًا ولا يقوى على التصرف. ذلك الذي يقف تحت عامود النور كان ينتظر سيارة العمل ... رأيته مرات من قبل، وأنا أطل — بعفوية — من النافذة، لأرق يعقب تناهي الأذان من أبي العباس، أو ابتهالات ما قبل الصلاة. لكن البريق الذي التمع في عينَي أبي، بما هو أكبر من الخوف، كأنه يرى الموت، جعل السؤال سخافة لا معنى لها. تضاءل العملاق القديم فتمنيت أن أحتضنه وأبكي.

غامت عيناي، فدفعته برفق: حديثنا سيوقظ إخوتي. نم أنت، ولن أغادر مكاني حتى أطمئن إلى انصراف الرجل.

أيقظني أبي لصوت يتصاعد من نافذة المطبخ. قال: إنهم يتسلقون المواسير. وأصر أن يتقاضى محصل الكهرباء نقوده من شراعة الباب. وأعلن قلقه لما تأخر شاكر عن العودة من المدرسة. وزاد من تأكده — ليلًا — إلى إغلاق الباب والنوافذ بإحكام.

ولمحته — يومًا — يقلب في حقيبة نافع — أعاد الحقيبة إلى موضعها، وهمس كالمعتذر: لا بد أن أحتاط!

لما صحوت، كانت الشمس قد ملأت الدنيا. هدني النقاش مع أبي، فنمت. كان إخوتي قد انصرفوا إلى مدارسهم، وران على الشقة هدوء. اتجهت — بتلقائية — إلى غرفة أبي.

كان مكورًا — في الأرض — على جنبه، وعيناه مبحلقتان في سكون جامد، غريب.

(إبداع — فبراير ١٩٨٦م.)

التحقيق

فلما كان اليوم الأول، أشار رئيس نيابة أمن الدولة إلى سكرتير الجلسة.

فتح السكرتير المحضر.

أدنى رئيس نيابة أمن الدولة كرسيًّا، أسند قدمًا عليه، والقدم الأخرى على الأرض. اتجه إلى المتهم الجالس، بنظرة تخلو من تعبير محدد: اسمك؟

– محمد يوسف المصري.

– عمرك؟

– ٢٤ سنة.

عملك؟

– صحفي.

– ردك على الاتهام الموجه إليك؟

– لم يوجه إليَّ اتهامٌ ما!

– فلماذا أتوا بك إلى هنا؟

– لا أعرف ... كنت نائمًا لما أيقظتني زوجتي ... الحقيقة أني استيقظت على الأصوات التي ملأت الحجرة ... أربعة رجال، أصروا أن أرافقهم، دون أن يتيحوا لي ارتداء ملابسي ... احتجزت ثلاثة أيام في حجرة خالية ... ثم أتوا بي إلى هنا!

أنزل رئيس نيابة أمن الدولة قدمه من على الكرسي، وفرد قامته. أملى على سكرتير الجلسة الكلمات التالية: «أنكر المتهم توجيه أي اتهام إليه. أمرنا باستدعاء الضابط المسئول، وأُقفل المحضر في تاريخه ...»

فلما كان اليوم الرابع، أشار رئيس نيابة أمن الدولة إلى سكرتير الجلسة.

فتح السكرتير المحضر.

ظل رئيس نيابة أمن الدولة في جلسته وراء المكتب. قرأ من الأوراق أمامه: «استدعينا المتهم محمد يوسف المصري، لسؤاله في الرسالة التي وجهها إلينا بشأن ما لديه من اعترافات، حول اشتراكه في تنظيم سري ...»

اتجه إلى المتهم بنظرته الخالية من تعبير محدد: هذه الرسالة تحمل توقيعك!

– نعم.

– حدثني إذن عن طبيعة هذا التنظيم، وظروف اشتراكك فيه.

– الاتهام ملفق ... ولم أشترك في أي تنظيم!

أطل من عينَي رئيس نيابة أمن الدولة غضب: قلت إنك صاحب توقيع الرسالة التي تعترف فيها بالاتهام الموجه إليك!

– وقعت دون أن يتيحوا لي القراءة!

أسند رئيس نيابة أمن الدولة ظهره إلى الكرسي الجلدي وراءه. أملى على سكرتير الجلسة الكلمات التالية: «ذكر المتهم أنه قد وقَّع على الرسالة التي تتضمن اتهامه، دون أن يتاح له حق الاطلاع على هذا الاتهام.»

فلما كان اليوم السابع، انتظر رئيس نيابة أمن الدولة حتى استقر المتهم في الكرسي المقابل: متعب؟

– نعم.

– لماذا؟

رفع المتهم رأسه المتدلي فوق صدره. ارتعشت شفتاه بكلمات لم ينطقها، وسكت.

أشار رئيس نيابة أمن الدولة إلى سكرتير الجلسة فتح السكرتير المحضر.

قرأ رئيس نيابة أمن الدولة من الأوراق أمامه: «استدعينا المتهم لسؤاله في الرسالة التي وجهها إلينا» بشأن ما لديه من اعترافات، بأنه قد اشترك اشتراكًا فعليًّا في تنظيم سري، يستهدف ترويج مبادئ هدامة.

– قرأت هذه الرسالة قبل توقيعها؟

– نعم.

– فما ظروف اشتراكك في التنظيم، وطبيعة دورك؟

تشاغل المتهم — للحظة — بعضِّ إصبعه، ثم هتف من بين أسنانه: لم أشترك في أي تنظيم ... عُذِّبت لأوقِّع على هذه الرسالة!

أملى رئيس نيابة أمن الدولة هذه الكلمات: «ذكر المتهم أنه قد جرى تعذيبه ليوقع على الاتهام الموجه ضده. أمرنا باحالته إلى الطبيب الشرعي لإبداء الرأي.»

فلما كان اليوم الحادي عشر، استأذن الطبيب المرافق للمتهم، أن يظل بالقرب منه — أذن له رئيس نيابة أمن الدولة، وأشار إلى سكرتير الجلسة بفتح المحضر.

جاوزت نظرة رئيس نيابة أمن الدولة تعبيرها اللامحدد: هل نرجئ التحقيق؟

أملى دون أن ينتظر الجواب: «استدعينا المتهم لسؤاله في الرسالة التي أكد فيها قيامه بأعمال تخريب، ضمن مخطط لقلب نظام الحكم ...»

– الرسالة بخطك، والتوقيع لك؟

قال المتهم في صوت متعب: إني أعترف بما في الرسالة.

أعد رئيس نيابة أمن الدولة نفسه لاعتراف مطول: هل نبدأ منذ اشتراكك في التنظيم؟

– اكتب ما تشاء، وأوقع عليه!

– ماذا تعني؟

قال الطبيب المرافق: واضح أنه عُذب كثيرًا، ليكتب ما كتب!

فلما كان اليوم الخامس عشر، أمر رئيس نيابة أمن الدولة الرجلين، اللذين تساند عليهما المتهم، بالانصراف ... بدا تأثره لما عليه المتهم من إرهاق. قدم له سيجارة، وأمر بكوب شاي.

أشار إلى سكرتير الجلسة، ففتح السكرتير المحضر: «استدعينا المتهم لسؤاله في رسالة بعث بها إلينا: يعترف فيها بإقدامه على محاولة قتل عدد من الشخصيات السياسية ...»

أسند أصابعه — برفق — إلى كتفَي المتهم: هل الرسالة بخطك، والتوقيع لك؟

قال: نعم.

– أنكرت في البداية مجرد اشتراكك في تنظيم سياسي؟

رفع المتهم نظراته إلى العينين الملتمعتين خلف الباب الموارب: كنت كاذبًا!

– فلنبدأ من البداية إذن ... منذ اشتراكك في التنظيم.

(القصة — يناير ١٩٨٤م.)

الرائحة

(١)

لا يذكر بالتحديد، متى — للمرة الأولى — تسللت الرائحة الغريبة إلى أنفه؛ رائحة غامضة تبين حقيقتها، وإن أثارته. استفزته لدرجة الالتفات إلى مصدرها. ربما كانت البداية حين اضطر إلى التوقف — مرغمًا — حتى يمر الموكب الرسمي. ربما لم تكن كذلك، وإن بدت الرائحة واضحة أكثر من مرات سابقة لا يتذكرها.

سأل جاره — بعفوية — عن مصدر الرائحة. أنكر الجار وجود الرائحة أصلًا.

(٢)

لم تكن الرائحة — في ذاتها — مصدر التنبه. طبيعتها الغامضة، أشبه بتداخل الظلمة والأوراق النقدية ودورات المياه والحجرات المغلقة، تسري في الهواء، تتسلل إلى الأنف، تضفي على النفس شعورًا بالانقباض والتوتر والخوف من المجهول الذي لا يدري مبعثه.

تشمم — في البداية — نفسه. أطال الوقوف تحت «الدوش»؛ يزيل أي أثر للعرق من جسده. الجلسة المتصلة، يطالع ويقرأ ويسجل البيانات، في قاعة المطالعة بمكتبة البلدية، منذ تفتح أبوابها، حتى يعلن الموظف قرب موعد الإغلاق. ربما غلفت الجسد المتعب برائحة العرق، فبدت في أنفه غير مألوفة.

(٣)

سأل زوجته: ألا تشمين الرائحة؟

قالت: ليست جديدة ... بائع الطعمية تحت البيت من قبل أن نسكن.

– لا أعني تلك الرائحة ... إنها رائحة أخرى.

– تساءلت: هنا ... داخل الشقة؟

في تأكيد: طبعًا.

– لكنني — كما تعلم — أحرص على تنظيف الأرض جيدًا بالديتول، وأرش في الأركان — بعد ذلك — عطرًا طيب الرائحة.

كأنه يحدث نفسه: هل هو ذلك العطر؟

– إني أستعمله منذ سنوات.

– فمن أين تأتي الرائحة إذن؟

– لا أشم أية رائحة!

(٤)

سألته زوجته، وهو يسحب الغطاء على صدره: هل تعانين من القلق؟

توقف إصبعها على زر النور: أنا؟

– أراك تسرفين في تدخين السجائر.

زوت ما بين حاجبيها: ينبغي أن أدخن السجائر أولًا ... لتصبح المشكلة بعد ذلك، هي الإسراف في تدخينها!

– كأنك لا تدخنين؟!

– طبعًا.

رفع ظهره إلى مسند السرير. همَّ أن يحدثها عن أعقاب السجائر التي بدت مألوفة لعينيه في «الطفاية»، حيرته الأحاديث الهامسة، والتي تجنب وضعها في إطار الشك. ربما الاهتمامات المشتركة التي تغيب عن عالمه، كرة القدم — مثلًا — أو مسلسلات التليفزيون ... لكن النظرة التي يعرفها جيدًا، دفعته إلى التأمل فيما جرى ويجري، نظرة تلتمع في العينين لما تطرح العاطفة مقدماتها، يشعر باحتياجها إليه، ترافق النظرة تلك اللحظات لا تجاوزها، ترتبط بالدفء الآتي. تأكدت شكوكه بالنظرة التي التمعت، في غير أوانها، وكان مشغولًا عن حديثها الهامس بكتاب يقرؤه.

أعدَّ الكلمات وما ينبغي قوله. همَّ بالنزول من السرير ليناقش الأمر من بدايته ... لكن الرائحة اللعينة فاجأته، أحاطت بوجهه وصدره، أفقدته الرغبة في التقاط الجزئيات، تسللت بالخدر في أعصابه، فبدت الأشياء سخيفة وبلا معنى.

أشار بيده، فأطفأت النور.

(٥)

لم تكن هذه الوقفة مما يدور في باله. مع أنه تعوَّد أن يكون في الجانب المقابل، البعيد، من مدخل البيت، فإن السنوات الثلاث التي أمضاها في الحي، لا بد أن تجعله معروفًا للكثيرين. ظلت نظراته ثابتة على المدخل ذي الضلفة المغلقة. لم يشغله مرور الوقت، حرارة الشمس اللاهبة، النظرات المتطلعة والمتسائلة والمتأملة.

أرجأ الوقفة التي يشغلها تبين الحقيقة. عاد إلى البيت لما اندفعت سيارة مرسيدس في حفرة طينية، فنثرت رذاذًا على ثيابه. أدهشه أن الرذاذ تصاعد إلى أنفه بتلك الرائحة اللعينة التي كأنها تطارده.

(٦)

جال بعينيه في لافتات الأطباء المتناثرة على عمارات محطات الرمل. لم يشد انتباهه الاسم، بقدر ما اطمأن إلى الصفة: أستاذ أنف وأذن وحنجرة. قال له أبوه يومًا: إذا دخلت قسم البوليس، فاسأل عن المأمور. إذا ترددت على مصلحة ما، فاتجه إلى المسئول. الصغار يبتزونك ولا يفيدونك شيئًا!

فاجأه خلو العيادة من المترددين. ظن أنه قدم في غير الموعد المحدد ... لكن الممرض دعاه للدخول. أقبل عليه الطبيب مرحِّبًا كصديق قديم. بدا الوجه مألوفًا، كأنه يعرفه، أو التقى به من قبل.

تحدثا في السياسة والرياضة وبرودة الجو بما يخالف هذه الفترة من العام. فارق السن الواضح أتاح للطبيب أن يتحدث عن تجاربه السياسية المبكرة، والمظاهرات التي شارك فيها ضد السراي والاستعمار وزعماء الأقلية. الثورة لها إيجابياتها، لها سلبياتها كذلك: غلطتان كفيلتان بهز الأساس الذي شيدت الثورة فوقه كل ما بنته: زيادة أعداد الأميين، وغياب الديمقراطية!

قال: فماذا عن التصنيع والسد العالي وتوفير فرص العمل ومجانية التعليم والرعاية الصحية والاجتماعية؟!

وهو يتراجع بأعلى صدره، ويرفع يدين مفتوحتين، كأنه يستسلم: لا أريد أن أبدو في موقف المعارض للثورة ... إني محب يرجو لمحبوبه الكمال.

لمحه الطبيب وهو يختلس النظر إلى ساعة يده، قال في بساطة: الوقت سرقنا ... مم تشكو؟

استعان بيديه في التعبير عن الرائحة التي نغصت عليه حياته ... لا يدري كنهها ولا مصدرها. يهب من نومه — أحيانًا — على هزات عنيفة، توقظه بها زوجته، تحدثه عن الأنات المكتومة التي يصدرها في نومه. يتذكر أن ما سبق الاستيقاظ مباشرة، حلم ضبابي التفصيلات، وإن تغلف بتلك الرائحة الغامضة المثيرة، التي يشعر لقوتها — أحيانًا — كأنه يوشك على الإغماء.

سأله الطبيب: ماذا تشم الآن؟

قال: رائحة العيادة ... أدوية ومطهرات.

– ألا تشم تلك الرائحة التي تتحدث عنها؟

– لا!

– فأين تصادفك بالتحديد؟

– في نافذة البيت ... في الشارع ... في المكتب ... حاولت أن أصل إلى مصدرها، فلم أوفق!

أمال الطبيب رأسه. وضع قطرات في منخاريه، وانتظر قليلًا: ماذا تشم الآن؟

– رائحة هذه القطرة.

وتلك الرائحة؟

– لا أشمها!

هز الطبيب رأسه في حيرة. سحب من المكتب دفتر الروشتات ... كتب — بالإنجليزية — جملًا غير واضحة — قال وهو يدفع إليه بالروشتة: انتظر لثلاثة أيام نتيجة هذه الأدوية ... إذا عاودتك الرائحة تعال!

(٧)

غابت الرائحة عن الأماكن المعتادة. لم تعد زوجته توقظه بهزاتها التي تكررت في الأيام الأخيرة. تيقن أن الدواء قد فعل مفعوله. قرر أن تعود إلى حياته سيرتها الأولى. عابثَ زوجته — بلا سبب — لمجرد تعويض أيام التوتر التي عانت من رذاذها. أقبل على القراءة والكتابة — فدراسة التاريخ عمله — بصورة مجنونة. تصاعد المرح داخل النفس، ومع الآخرين، بما لم يعهده من قبل. أعاد تنظيم مكتبته، بحيث لا تدفعه الفوضى — كما فعل مرات عديدة — إلى شراء الكتب، بدلًا من البحث في الغابة المتشابكة الأغصان!

(٨)

لم يكن تسللًا من الرائحة ما حدث. بدا أشبه بالاقتحام. أثار الحساسية في أنفه وعينيه، حرك السعال المتواصل في حلقه. حاول أن يسترد أنفاسه. فلم يأبه بالنظرات المشفقة — والساخطة — للمزدحمين في المدرجات، يتابعون — باهتمام — نقاشًا ساخنًا في المراحل المتعاقبة للتاريخ الحديث.

(٩)

غادر القاعة، تلفه الرائحة اللعينة، تعمي عينيه، وتضايق صدره، وتسري بتثاقل في رجليه. قبل أن يجاوز الباب، تناهى إليه السؤال: هل كان أحمد عرابي درويشًا أم بطلًا؟

(الهلال — يناير ١٩٨٣م.)

تسجيلات على هوامش الأحداث بعد رحيل الإمام

... وكان الناس، كلما رأوا رجلًا صالحًا، ظنوه المهدي.

فرت حبات المسبحة بأئمة كثيرين، يختلفون في النهج والأسلوب والتصرفات، يتفق توالي العهود في توالي النكبات والمظالم والجور، يطل شعاع أمل فتطويه غلالات حالكة السواد. ما يبدو حلمًا طارئًا يصبح هو الواقع الذي لا نجاة من إساره. يسرف الناس في القسوة على أنفسهم، وعلى الآخرين، يلفهم دخان السكينة الهادئة، أو يقطر الدم، تتألف التنظيمات والجمعيات المعلنة — والسرية — تعانق الواقع، وتعيب على الماضي ما كان، أو ترفضه، وترنو إلى الماضي بنظرة ثابتة: لا تحيد.

خلف الحزن الهائل تساؤلات — بدأت همسًا — ومناقشات وروايات للحكاية منذ بدايتها: منذ أسلم الرسول العظيم خلافته إلى الإمام، وآل البيت من بعده.

علت الهمسات، فأصبحت يقينًا تملؤه الثقة. تألفت التنظيمات التي تؤكد عودة المهدي يومًا. إنه — بعدُ — أمل الخلاص للملايين من المؤمنين والغلابة والذين ضاعت حقوقهم؛ ذلك الذي اختفى منذ قرون، يعود إلى الأرض، فينشر في أرجائها الأمن والطمأنينة والسلام، يملؤها عدلًا وفروسية وبطولة. قال الرسول: «لا تذهب الدنيا حتى يقوم بأمر أمتي رجل من ولد الحسين، يملأ الدنيا عدلًا كما ملئت ظلمًا.» النظرات مقيدة إلى المساجد والبيوت والشوارع والأزقة والحواري والنوافذ والمقاهي والكهوف، تنتظر المعجزة؛ تحطم إطار الزمن الراكد، وتخترق القرون المجدبة، وتملأ الحاضر اليائس أملًا وبطولة وجمالًا. لا بد أن يأتي المهدي يومًا، يهبط في السحاب، الرعد صوته، والبرق سوطه، والعدل مذهبه الذي لا ينحرف عنه. قائد جيش الملحمة آتٍ، قلبه ينبض بالإيمان، وسيفه مسلول على أعداء الله.

لا بد — في آخر الزمان — من ظهوره، حلقة أخيرة في سلسلة آل البيت الأطهار، يؤيد الدين، ويظهر العدل، فيتبعه المسلمون، ويعيد الحق الإسلامي إلى نصابه، ويناصر المسيح حين ينزل من بعد الدجال الذي يخرج في عهده، فيقتله، ويأتم المهدي في صلاته. ألم يختفِ الرسول في شِعب جبل ثور ثلاث سنين، فلم يصل إليه أحد؟ ألم يختفِ في الغار؟ ألم تطل غيبة نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا، قبل أن يعود إلى قومه، فيبث دعوته؟ … لا بد من ظهور المهدي، فتحل البركة، ويفد الرخاء، ويظهر العدل، ويتأيد الدين. وثمة نظرات متعجلة، مشفقة، إلى جبال رضوى، بين مكة والمدينة، فيها محمد ابن الحنفية، حي لم يمت، وصي علي بن أبي طالب، وهو الإمام المنتظر. وثمة كهف في اليمن ما يزال عند بابه جماعة، يتطلعون ليل نهار — منذ قرون — إلى مدخله المعتم، ينتظرون المعجزة. وربما يظهر في منطقة «المقرن» عند التقاء النيلين الأبيض والأزرق ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾. وبدو قرية الرجيب الجبلية في الأردن، أهملوا المعاناة وقسوة الحياة، بعيدًا عن الريف والحضر، وتركزت أبصارهم على مجموعة من الكهوف الصغيرة، القديمة. وثمة رواية أنه ها هنا يحيا إمام آخر الزمان، قبل أن يظهر للعالم الذي أفسدته المباذل والشرور؛ ليملأه رخاءً وعدلًا وقسطًا. وربما كانت العودة الظافرة في مغارة صفرو بالمغرب، أو مقبرة سيدي مسعود بن إدريس بالجزائر، أو مغارة جبل الغرة، أو مسجد ميداس، أو مسجد الوديان بتونس، أو مغارة المغاوري فوق جبل المقطم، أو مغارة جبل قاسيون المطل على دمشق، أو الكهوف الصخرية المتناثرة في جبل الرقيم بالصحراء الأردنية، والآلاف يقفون أمام باب السرداب الصغير في الحلة بالعراق، تنقضي اللحظات بطيئة، قلقة، متوترة، من غروب الشمس إلى مغيب الشفق، والنداء يصدر من أعماق النفوس: أيها الإمام، لقد كثر الظلم، وعم الجور، وساءت الحال، فاخرج إلينا لتنقذنا مما نحن فيه. وثمة الواقفية الذين يثقون في أن الإمام داخل سرداب «الحلة» فلا يغادره إلا وقتًا معلومًا، يقفون كل ليلة — لا يدركهم سأم — بعد صلاة المغرب، على باب السرداب، معهم قارب أعدوه ليركبه، وينقضي الليل فلا يظهر، فيعودون إلى وقفتهم التي لا يدركها السام، بعد صلاة المغرب، في اليوم التالي. قلة قليلة، تنتظر قيامه في مقابر البقيع بمكة المكرمة، ينفض التراب عن جسده الطاهر، يبدو كأن مئات الأعوام التي توالت منذ مات ودفن، لم تؤثر في ملامحه ولا في وسامته، ولا شبابه الحي الدافق، يغادر المكان الذي يضم أجداث الآلاف من آل البيت والصحابة والتابعين، مقصده البيت الحرام، ينادي من فوقه: الله أكبر! … تجمع هؤلاء الذين كاد يهدهم اليأس من بزوغ الأمل. السفينة بلا ربان، الخراف تبحث عن راعيها، القلب الهامد ينتظر قبلة الحياة. قالوا: لأنه لا بد من توحيد مقاومة المظلومين، وقهر الظالمين، فإن الأنظار تظل

تتطلع إلى البطل. وقالوا: البحث عن المنقذ يحتم ظهور الإمام المنتظر. وقالوا: المهدي لا تشغله الولاية، ولكن الناس هم الذين يحتاجون إلى الإمام!

فكرة الإمام هي الشغل الشاغل، يعلو النقاش ويخفت ويتفق ويختلف ويتناقض، يبدأ برسائل الجامعات والمنشورات، وينتهي إلى الجمعيات السرية والمتطرفة. ظهرت في مدينة «العين» دعوة لشيخ مجهول الاسم، تنادي بأن تكون الإمامة بالاختيار المطلق عن كل قيد، أفضل أبناء الأمة هو الأجدر بتولي المسئولية، ورعاية شئون المسلمين. الصدِّيق والفاروق وعمر بن عبد العزيز والعشرات من غير آل البيت، أجادوا سياسة الدولة، وحققوا للأمة الإسلامية أمجادًا لم تكن تخطر في بال، فلماذا الإمامة تقتصر في آل البيت وحدهم؟ يؤمنون بالله، وبالجنة والنار والملائكة والكتب المنزلة والأنبياء، وإنفاق المال فيما يعني من الواجب والمندوب، وإيصال القرابة، وترك قطعهم، وتفقُّد اليتيم، وعدم إهماله، والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل والسائل وفي الرقاب، والمحافظة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس. ناقشوا وجوب تناول الطعام باليمين، والشرب باليمين، وحمل العصا، وإطلاق اللحى، وتحريم اقتناء الصور الفوتوغرافية، والشرب والمرء واقف، واستفظاع الأكل على الطاولات، والجلوس على المقاعد، فالرسول لم يأكل على هذه، ولم يجلس على تلك ... انضم المئات إلى جماعة سرية، توزعت مقارها في مدن شتى؛ لأن المسلمين في زمن الاستضعاف، فإنه لا يحق للمرء أن يجاهر بإسلامه، أو فرائض دينه. التقية أنسب وإلا تعرضت حياته لاضطهاد ربما لا تقوى على احتماله نفسه الضعيفة. أباحت جماعة وليدة لأعضائها عدم التردد على المساجد، أو السعي لأداء فريضة الحج، أو أداء صلاة الجمعة، أو العيدين، وأباحت زواج المشركات ومشاركة الكفار أعمالهم وشئون دنياهم، حتى تنطلق الصيحة — في يوم قريب — فتوقظ النائم، وتفزع اليقظان، ويسترد الإسلام مكانته وعزه. في صراحة، أعلنت دعوة أخرى تعددت أقطار دعاتها: ما يهمنا في الحاكم استقامته ونشر الدين، والعمل بالكتاب والسنة، فلا يهم — من بعدُ — أن يكون إمامًا أو سلطانًا، أو حتى حاكمًا عسكريًّا. كانت الشورى — في القديم — مُعلِمة لا مُلزمة، أما في زماننا الحالي، فإنه لم يعد من المتصور أن يستشير الإمام أهل الحل والعقد، ثم يهمل آراءهم. ما معنى الشورى إذا كان رأي الإمام هو الذي يمضي؟

– نحن نختاره ليكون خادمًا لنا.

– الإمام خادم؟!

– اخترناه ليكون أجيرًا يقوم على مصالحنا ... ومن له الحق في إعطاء البيعة، له الحق في سحبها!

وعندما قال إمام الجامع الكبير بالجزائر: القرآن حمَّال أوجه.

رفع الشاب المصحف بيده، وقال: القرآن به حلول كافة مشكلات العصر!

قامت جماعة التبليغ، تجوب الأقطار، تطيل الإقامة في المساجد والخلوات، تدعو إلى الله. الأبدان خالية إلا من الصفاء والمودة والتسامح، فلا سلاح أو شبهة عنف، وللسياسة ناسها الذين يغيب عنهم فهم الدين؛ السياسة تورث القلوب قسوة تلهيها عن ذكر الله. ولهجة التوسل تُحدث تأثيرها في المحسنين الذين لا يبخلون على الدعوة بما تحتاجه من مال. أفراد الجماعة يصبرون على حكم الله، يأخذون بما أمر، ينتهون عما نهى عنه، يخلصون العمل والنصيحة للمسلمين، يجتنبون الكبائر والزنا وقول الزور والكبر، يتشاغلون بقراءة القرآن، يبذلون المعروف، يكفون الأذى، يتركون الغيبة والنميمة والسعاية. ظهرت دعوة جديدة — لها دعاتها في كافة الأمصار — وإن لم تفصح عن قائدها ولا مصدرها الرئيسي. الهجرة هي الشعار الذي أعلنته الجماعة، الخروج من دار الحرب إلى دار السلام، من دار الخوف إلى دار الأمان، من دار الكفر إلى دار الإيمان، تشدد على أعضائها فهم لا يصلون مع الناس، لا يلقون السلام ولا يردون السلام، وكيف يصلون في أرض غلب عليها الحرام، ويسلمون على الذين يسبون الصحابة والتابعين، الجزء المريض يفصل عن بقية الجسد، فيستريح، والغالب في جسد الأمة يعاني من السقم والأورام والتشدد الذي تجعل منه الدعوة الجديدة مدخلًا لتعاليمها. ربما هو السبيل إلى حياة طيبة قادمة؛ فالتعليم في مدارس الدولة حرام لأنها غير دينية، والعمل في الحكومة جريمة لأن الحكومة تتعامل بالربا، والانخراط في الجيش جريمة كذلك، لأنه يدافع عن دولة كافرة. يرفضون الكهرباء، ويوقدون المصابيح، وينامون على الأرض بدلًا من الأسرَّة. حتى أئمة المساجد — هؤلاء الذين يدافعون عن الأنظمة الفاسدة، ويدعون لأئمتها — لا يجوز الصلاة خلفهم. الصلاة في المساجد — عمومًا — حرام؛ لأن الكفار وحدهم هم الذين يترددون عليها. مما يدخل في إطار البدع: تحية العلم، السلام الوطني، زيارة قبر الجندي المجهول، برامج التليفزيون، تعليم البنات، الاختلاط، اشتغال المرأة في الوظائف وإدارة الأعمال. الحل في الهجرة إلى مكان يبعد عن السلطة المباشرة للحكومة، فتقام الحدود والواجبات حسبما أمر الله. الهدف المؤقت جمع الأنصار وإعداد المئونة. الهدف القريب هو الرحيل والهجرة الجماعية، تبشيرًا بميلاد المجتمع الذي يعبد الله وحده.

هل يسقط من الحساب هذا الزمان، ما بين وفاة الرسول وظهور الإمام؟ يتواصل الزمان بما كان أيام النبي، وتمسي التعاليم امتدادًا لتعاليم الرسول العظيم؟ ... تضيء المعجزات التي غابت بوفاة آخر الأنبياء والمرسلين؛ يعود الموتى — مرة ثانية — إلى هذه الدنيا؟ يولد الصبي، فيكلم الناس في المهد؟ ينزل الطعام على الجوعى مباشرة من السماء؟ يشفي — دون علاج — الأعمى والأبرص والمشلول؟ يردد الطير والحيوان آيات الحمد والتسبيح؟ يلين الحديد في اليد المؤمنة كما يلين الشمع، يحادث الطير البشر، ويحادث البشر الطير، فلا يخفى حتى ما يريده النمل، تخضع الجان للإرادة الإنسانية، لخير الإنسان ورخائه، تظهر الدابة: طولها ستون ذراعًا، لها وجه إنسان، وجسد ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، تحمل عصا موسى وخاتم سليمان، وتكلم الناس لما يأتي أمر الله كمقدمة من مقدمات الساعة؟ ... ويتفجر ضياء الإمام في أيامه الباهرة، يخرج الدجال، ينزل — من بعده — المسيح، فيغيب الدجال في معلوم آجله، ويضع المسيح الجزية، ويقتل الخنزير، ويجدد ما درس من شريعة الإسلام، ويتبعها، وتكون السجدة واحدة لرب العالمين، ويعم ضياء إمام آخر الزمان ... لا يشغل إنسان نفسه بالعمل، مع العدل تحل البركة، ويأتي الرخاء فإذا تمنى أحد شيئًا ناله دون أن يسعى إليه، أو يعلن عن أمنيته. تختفي الأمراض، ويصبح الموت أسطورة. كل من أدركته الشيخوخة يغطس في أقرب نهر، فيعود شابًّا. يأمر الإمام، فتأتي — من أماكن مجهولة — سفن ضخمة، تحمل طعامًا وثيابًا، وما لا يخطر على ذهن بشر. تتحقق على الأرض جنة المحرومين: تُرفع الشحناء والتباغض، ويتآلف البشر والحيوان والجماد، ويدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، وتداعب الوليدة الأسد فلا يؤذيها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتفرض الكلمة الواحدة نفسها فلا يُعبد إلا الله، والسلام هو اللحظة والاستمرار، والحرب أسطورة. لا تقتصر الحياة الآمنة على الإنسان وحده، يشاركه في ذلك الحيوان في الغابة: الأسد يصادق الثور، الفهد يسالم الجدي، القط يؤاخي الفأر، يصبح الجميع متحابين، حتى الموج يهدأ عن عراك الصخر.

يا أيها المهتدي من الله سبحانه، الهادي إلى السلام والعدل والمساواة ... متى تظهر؟ ... يقترب يوم الإيمان، يدخل ﴿«الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يلبسون ﴿ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وثيابًا من حرير، يحلون بأساور من الذهب والفضة، لا يسمعون ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾، يتكئون على الأرائك، لا يرون

﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾، لهم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، دون شقاء وتعب. تمضي الأيام في نعيم دائم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ وثمة قاصرات الطرف، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

توضحت — فيما بعد — نبرات الأصوات الهامسة. أبانت عما تريد وما لا تريد، ناقشت وأبدت الرأي وقبلت ورفضت ووضعت الصورة في إطارها المحدد: حتى يعود — أجلَّه الله — من غيبته، فإن الحياة يجب أن تمضي في سيرها المعلوم: الأشجار تهبُ الثمار، الناس يتناكحون ويتناسلون ويذهبون إلى المصالح، يشيدون ويبدعون ويعملون للحاضر، وللآتي أيضًا. إذا تحدد الجهد في انتظاره — أفاده الله — فمن يبني ويزرع ويجمع الجيوش ويحمي الثغور ويذود عن الحياض ويصرف الأموال العامة في مصارفها؟ علينا، حتى يئوب — أيده الله — أن نعمل ونعمل: تتحول أكواخ الطين والصفيح وأسطح البوص، إلى بيوت من الطوب، تحل الباحات الواسعة النظيفة، محل الزرائب، يعرف الجميع الثلاجة والتلفزيون والتليفون والفيديو، يكون للماشية مكانها المستقل، فلا تشارك الفلاح نومه، يجني الفلاح — والصياد — ثمار كدِّه، تختفي المصادرات والحراسات وزوار الليل، تختفي كذلك اللامبالاة والسمسرة والأتعاب والعمولات، يغيب التجسس على الحريات الشخصية، يبين الفردوس عن بعض ملامحه في الدنيا، فلا يصبح وعدًا غير مرئي في الآخرة. ما دامت المرأة لم تعد حبيسة بيتها، وخرجت إلى المدرسة والجامعة والسوق والملاهي والعمل، فإن عليها أن تخرج إلى المسجد، تقف في مؤخرة الصفوف — كما اشترط الإسلام: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله.» المرأة — الآن — تتعلم وتتثقف وتعمل وتخالط الرجال، وتعلم الكثير الكثير من شئون الدنيا؛ من حق المرأة أن يكون لها أمر زواجها.

قالوا: ما نريده ليس الأيدي المقطوعة والظهور الملتهبة بالسياط والرجم حتى الموت، وإنما القضاء على المشكلات من قبل أن تعطي ردود أفعالها، تنتفي التبعية وتعرف الحرية طريقها إلى المواطن العادي، ووسائل الإعلام والانتخابات، توضع الضوابط على الاستهلاك وفوضى التوزيع، يصدق المتحدث — أيًّا كان — فيما يقول، نتبادل التحيات والابتسامات والكلمات الطيبة، تعود من فضلك وإني آسف، نحب الورود والفجر والأصيل والغروب،

نزرع النخلة فتحصل على الثمار أجيال تالية، يجيد المنكبُّ على صناعة بين يديه، تجري المحافظة على الآداب العامة وصيانة الحرمات ومراعاة أحكام الشريعة، نطارد الجناة ونحارب المنكرات من العقود التي يحرمها الإسلام، يتأكد منع الغش وإجبار محتكري الطعام على بيعها بالأسعار المعقولة، وفحص الموازين — بطريقة دورية — لضمان استيفاء الوزن ومراقبة الصناعات وشئون الدواوين والمدارس، نحلم بالغد والمستحيل.

قالوا: دولة الإسلام هي المطمح، فلماذا الهجرة، والعودة — مرة ثانية — فاتحين؟ لماذا لا نوفر الجهد، فتقوم دولة الإسلام في بلد الدعوة، ليخرج منها المسلمون — بعدها — فاتحين؟

الأستاذ يعود إلى المدينة

(١)

هبط من الترام، في منحنى شارع رأس التين، والتقائه بصفر باشا. مضى — يعرف طريقه — إلى مجموعة الرجال الذين يملئون قصعات الأسمنت المخلوط، والنساء اللائي يحملنها فوق سقالات خشبية إلى الأدوار العليا، قبالة مسجد سيدي عبد الرحمن.

كان أقرب إلى القِصر والامتلاء. أخفى البالطو الكاكي نوعية ثيابه، واكتسى حذاؤه بتراب الطريق. خلا وجهه من تعبير محدد، وخلا كذلك من حقيقة عمره، وإن دعا — في مجمله — إلى الاحترام والتوقير.

أطال الوقوف أمام المشهد، كأنه اكتفى بمتابعة ما يجري. تطلَّع إليه الرجال — والنساء — بنظرات جانبية في انشغالهم بملء القصعات، وإفراغها في الطابق الأعلى. كان الجو أميل إلى الحرارة، فنزع البالطو وأسنده إلى ساعده.

اتجه — دون اختيار — إلى أحد الرجال الذين راحوا يملئون القصعات الفارغة بالأسمنت المخلوط. سأل — في اهتمام — عن موعد بداية العمل.

قال الرجل، وهو يطمئن بالكوريك إلى امتلاء القصعة: نحن نعمل منذ سنوات قليلة ... لكن البداية ترجع إلى زمان طويل.

– وهؤلاء الرجال ... والنساء كذلك ... هل هم حديثو العهد بالعمل؟

– أقدمنا — وأكبرنا في الوقت نفسه — عمله الملاحظة ... الملاحظة ... يسبقنا بسنوات.

(٢)

مضت أزمان، دون أن يغادر مكانه. يرقب الرجال والنساء، يملئون قصعات الأسمنت المخلوط، يصعدون بها إلى الطوابق العليا، تعود القصعات فارغة، فتملأ من جديد.

ألقى بالبالطو كيفما اتفق على تل رملي مجاور. بدا منشغلًا ومهمومًا بما يجري أمامه. إذا زايل مكانه، فلتناول الطعام، أو لقضاء الحاجة في دورة المياه الملحقة بمسجد سيدي عبد الرحمن. أصبح – بتوالي الأيام – جزءًا ثابتًا من حركة المكان. أَلِف رؤيته المارة والمطلون من النوافذ والشرفات، وأصحاب الدكاكين القريبة.

كانت تصرفاته أميل إلى العفوية والبساطة. ولم يكن في نظراته ما يدعو إلى الريبة أو الخوف. كانت عيناه تلتمعان ببريق هادئ كأنه الطهر، وربما القداسة. أجاب الفواعلية على أسئلته. رووا عن إدفو وأصفون المطاعنة وأبنود والنخيل والسواقي والكباري والجسور والشمس اللاهبة والليل الغطيس وأيام التحاريق والمساخيط وابن عروس وسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن والهلالية والثأر والجبل والمطاريد وقطار الصعيد. شاركهم أغنياتهم وأحاديث الراحة من العمل. ارتاد بهم عوامل جديدة — استهوتهم — في آيات القرآن وأحاديث الرسول والحكم البليغة. دعَوه — أحيانًا — إلى الغداء، فلبى ببساطة طيبة. غابت — بدفء المودة — نظرات النساء الخجلى أمام نظراته الحانية.

لم يحادثهم عن حياته ولا من أين أتى، فحاولوا التخمين: لدرايته بمواعيد الأنواء وأحوال البحر والصيادين، نسبوه إلى الإسكندرية. فلما تداخلت في أحاديثه تعبيرات الفلاحين، ظنوه من الدلتا. وبدا ملمًّا بالحياة في الصعيد، فحسبوه من أبنائه.

بدأت الأحاديث، تشابكت، امتدت. سأل وناقش وتعرف حتى إلى المشكلات الصغيرة والطارئة. ظلت — وحدها — حياته الخاصة في الجانب الرمادي. ثار التخمين: من الزي واللهجة ومعرفة الأشياء. بدت الجزيرة مرتعًا للأحاجي والألغاز والأساطير. تهامسوا، فاكتفى الخيال بعد حين بما انتهى إليه. أَلِفوا اقترابه بالملامح الظاهرة: ودود، سهل العشرة، طيب القلب. اختلفت حياتهم بعد مجيئه عما كانت عليه. شيء ما أضافه واستمتعوا به. زاد إقبالهم على العمل — لغير باعث محدد — وتلونت أغنياتهم بالفرحة، وتداخلت في أحاديثهم كلمات عن الأمل والمستقبل.

(٣)

بعد أن تناول الجميع طعام الغداء، وهمُّوا بالعودة إلى العمل، طالبهم بالوقوف في الرصيف المواجه صفًّا واحدًا.

أشار إلى سلسبيل — صغرى النساء — فاقتربت. لم يعد في العلاقة موضع لحذر. تفحص — في إشفاق وجهها الشاحب، وندبتَي الجُديري اللتين تركتا أثرًا واضحًا في خدها الأيمن.

نزع الحزام القماشي الذي كانت تحيط به خصرها. عالجت أصابعه أزرار الثوب إلى نهايته أسفل الظهر. ثم عاونها — في صمت — فنضَّت ثيابها، بدت بشرة الجسد العاري مناقضة تمامًا للسُّمرة التي لوحت بها الشمس وجهها وساعديها، وتألق الضياء في الأفق الشرقي.

لم يكن اختياره لها وليد اللحظة ولا مصادفة. أتاح له توالي الأيام أن يناقش ويسأل ويجيب. أبوها من قنا، وأمها من المنصورة. تعدد أزواجها، ماتوا أو طلقوا، وأنجبت أبناء كثيرين. تسبق الجميع في العمل، وهي — في الأعم — آخر المغادرين. ملاحة الوجه، وخفة الدم، واتساع العينين في ظل أهداب طويلة … جعل الشحوب — بتأثير الفقر والإرهاق — مقبولًا ولطيفًا … دورها في النقاش مداه الإجابة على أسئلة الأستاذ والآخرين، وإن غلب عليها — لاحظ الجميع — شرود دائم.

ساعد المرأة على التمدد في دكة عم أيوب الخفير. دعا أول طابور الرجال إلى عناق سلسبيل. تابع الأمر بكلمات مشجعة واهتمام.

نهض الرجل، فدعا الآخرين بالتتابع. بدا الجسد الذابل كأنه يدخل حياة جديدة. اتسعت الحدقتان، وذوى الإرهاق، وسرت النضرة في الوجه الشاحب، وحلَّقت أسراب النورس في امتداد الساحل، وتعالت — مصادفةً — زغاريد في شارع خلفي، وتناهى صرير عجلات الترام في انحناءةِ الطريق كأنه الغناء، وتناغم صياح الديكة وصفافير البواخر في الميناء الغربية ونسائم الربيع تلامس رءوس النخيل في طريق الكورنيش، وزادت دقات الدفوف من إيقاعها في حلقات الأذكار ورقصات أبي الغيط وانعتاق الجان — في حفلات الزار — من الأجساد التي هدتها العلل.

(٤)

لم يحاول أن يزايل وقفته إلا لضرورة، ومجموعة الرجال واصلت إملاء القصعات، وإفراغها في همة ملحوظة، والبروز المتنامي في بطن سلسبيل لم يمنعها من حمل القصعة إلى الطابق الأعلى.

(٥)

حان الميلاد.

رفض — في استنكار — أن يستدعوا الطبيب. طلب مقصًّا وماءً ساخنًا ومناشف وأغطية. خلا بها في كشك عم أيوب، وعالج الأمر بمهارة، أكدها صمت المرأة، فلم تصرخ كعادة النساء.

(٦)

حمل الوليد على يديه في سعادة واضحة. تأكد من دثاره بالقرب من صدره، وأودع الجميع نظرة عميقة ... ومضى إلى زحام شارع الميدان.

حدث استثنائي في أيام الأنفوشي

بعد أن استقرت السمانة فوق الصاري المرتفع، الخالي من العلم، في الجانب الأيمن من سراي رأس التين ... ألقت نظرة متأملة على مباني السراي من حولها والحديقة الواسعة يحيط بها سور مرتفع كحدوة حصان، والمباني المقابلة للشاطئ، تآكلت واجهاتها بملح البحر، والقوارب الصغيرة تناثرت فوق الرمال، والشاطئ — وطريق الكورنيش — في تلك الأيام الخريفية التي تخلو من الحركة.

تقافزت السمانة فوق الصاري، وتهيأت لمواصلة الرحلة. لكنها — في قرار مفاجئ — غيرت طريقها، وعادت إلى شواطئ أوروبا.

في اليوم التالي، قدمت — في الطريق نفسه — ملايين الأسراب من السمان، غطت الشاطئ والشوارع والأزقة وأسطح البيوت، تهادت — من الأبواب والنوافذ — إلى داخل الشقق والدكاكين. حتى الكبائن القليلة المغلقة، في امتداد الشاطئ، استطاعت — بوسيلة ما — أن تنفذ بداخلها.

بدا للناس — من كثافة الأسراب، ودقة تنظيمها، وانتشارها في كل الأمكنة — عجزهم عن المقاومة. مالوا — مؤقتًا — إلى التريث؛ فرحلة السمان لا تعرف التوقف.

هل يعدُّ السمان نفسه لإقامة طويلة؟ ... لم يحاول أن يضايق الناس، ولا أن يسطو على ما يمتلكون أو يدس منقاره في شئونهم الشخصية. أهمل حياتهم، فهم يحيونها بمثل ما اعتادوا: النوم والصحو والعمل والنقاش والفصال والأخذ والرد واجترار الذكريات. أحسنت مجموعاته الانتشار، فهيأت لنفسها الرزق. اكتفت بحجرة في نقطة الأنفوشي، تدير منها أحوالها. أفرزت — من بين أسرابها — كل ما تحتاجه من جنود وعلماء وحرفيين وموظفين.

حتى الصغار، أقامت لهم مدارس ودور حضانة في حنيات السلالم والأدوار الأرضية. أغنت الناس عما ألفوه — في الزمن الخالي — من الجري وراء أسراب السمان، حتى يهوي مجهدًا في أيديهم، فتنازلت — بطيب خاطر — لموائد الطعام عن مرضاها والمصابين في حوادث.

لم يعد في الأمر ما يريب. استفاد الناس من حياة السمان بصورة مؤكدة: النظام والهدوء وحب العمل — والكسب — والميل إلى عدم السهر. لكن شيئًا ما مقلقًا، تحرك في النفوس، وتصاعد بالهمس، أثاره الملل والمخاوف والأسئلة. لاحظ الناس أنهم لم يعودوا يتصرفون بمثل ما اعتادوا، وتنبهوا — وإن كان متأخرًا — إلى ملايين الأعين والأنفاس القريبة، والمقاسمة في المكان مهما كان شخصيًّا. خلت التصرفات من العفوية التي كانت سمة أيامهم السابقة. بدا لهم استمرار الوضع — بصورته الحالية — غاية في الصعوبة. تهامسوا، وعقدوا الجلسات السرية، وتبين لهم — بعد نقاش طويل — أن السكوت عن المقاومة — رغم كل شيء — طريق إلى الجنون.

(إبداع — فبراير ١٩٨٦م.)

الطوفان

في مواجهة شاطئ الأنفوشي، في الساحة الترابية الواسعة بين شارعَي خير الله بك والبوريني، ظهر المخلوق الغريب فجأة، جثة هائلة، غامضة الملامح والتفاصيل، أضخم مما اعتادت الأعين أن تراه، وأضخم مما رواه الجد السخاوي في حكاياته المثيرة عن أعاجيب الكائنات. مد الساقين في استرخاء، وأسند الرأس إلى ما بين الساقين، وتطلع — بنظرة ساهمة — إلى اللاشيء أمامه.

قالت رواية: إنه اختار تلك اللحظات التي تعقب صلاة الفجر، يعمق سواد الليل بصورة قاطعة، قبل أن يتسلل — في داخله — نور الصباح، لحظات يعمق فيها كل شيء، حتى الحاجة إلى النوم. سعى من مكانه في أعماق البحر، إلى هذه الساحة المقابلة لورش المراكب، فأخذ مكانه، يخلو من أثر لحياة، لولا عينيه اللتين تتحركان تحت أهداب مسترخية، أميل إلى التهيؤ للنعاس.

صحا الناس في الأنفوشي على المخلوق الغريب، يطالع أنظارهم ودهشتهم — وخوفهم أيضًا — من كل الأمكنة. حتى أول صاعدة إلى سطح بيتها في مساكن خفر السواحل، أطلقت صرختها الداهشة، فهرع الجميع لمعرفة ما حدث، واختفت هياكل السفن وراء المئات الذين احتشدوا على الرصيف، وفوق سور الكورنيش، يتطلعون ويسألون ويناقشون ويحاولون التخمين.

أفسح العساكر — بصعوبة — طريقًا لعالم الأحياء المائية، الذي رضخ — لخطورة الحدث وضيق الوقت — فركب سيارة البوكس.

هدأت خطواته حين انتهت به لمة الأجساد المتلاحقة إلى فراغ يتوسط معظمه المخلوق الغريب. دس في جيب معطفه الأبيض معدات — من الواضح أنه كان ينوي استخدامها — وعدل نظارته الطبية فوق أنفه، وتطلع إلى المخلوق في اهتمام واضح.

همس الضابط المرافق في أذنه مشجعًا: اقترب يا سعادة البك!

اضطرب لصوت الضابط، وليس للملاحظة. كان قد استغرق تمامًا في المشهد المثير أمامه. هذا المخلوق الغريب الذي يصعب تبين أن كان ينتمي إلى البحر أو إلى الأرض، أو أنه طائر من تلك التي أشار إليها الجد السخاوي في حكاياته.

تساءل الضابط: هل هو حوت؟

أجاب العالم في حسم: لا ... هاتان العينان لكائن بشري!

– الجثة نفسها ليست لمخلوق مما نعرفه ... ليست حوتًا أو فيلًا أو طائرًا كبير الحجم ... ولعلها شيء يجمع بين ذلك كله!

مال العالم إلى الخلف في قرار مفاجئ: إني أعرف في الأحياء المائية وحدها!

تزايد الناس، وإن لم يقتربوا، فبلغوا عشرات الألوف. سدت منافذ الشوارع والأزقة، من سراي رأس التين إلى انحناءة الترام في طريق الكورنيش. تساند عشرات السفن الصغيرة، والكبيرة، وقف فوقها، وتسلق أشرعتها وصواريها، مئات الأعين المتطلعة إلى الجسد الذي بدا — في همومه — أنه لا يعنيه ما حوله.

محروس الصغير — ابن المعلم متولي العباسي — وحده تشجع، فقذف المخلوق بقطعة حجر، ارتدَّت إلى الأرض أمامه، ولم يبدُ أنه قد أحس بها.

قال طبيب استدعته الشرطة: لماذا لا نعطيه مخدرًا يساوي حجمه، ثم نعيده إلى موضعه في البحر؟!

رافق رأيه بخطوات مهرولة إلى دكان عم محمد حلاق الصحة القريب. أفسح له الطريق عشرات من الذين وجدوا في الفكرة ما يستحق التنفيذ.

حمل كل ما في الدكان من حقن مخدرة، وبسمل وحوقل وتشهد، واقترب واقترب — محاذرًا — من الجسد، شجعته الاستكانة التي تلقى بها المخلوق غرس الحقنة الأولى، إلى إتباعها بحقن مخدرة أخرى، تالية.

طال الانتظار، فلم يبدُ أن المخلوق تأثر بالحقن المخدرة. ظل في جلسته الهادئة يعلن عن صحوه — وحياته — بعينين ساجيتين، تنظران إلى أمام في سكون هادئ.

فلما توالت الأعوام، دون أن يبارح المخلوق مكانه، قرر المحافظ الجديد للمدينة — حرصًا على مكانتها السياحية — أن يستعين بالقوات المسلحة، فتقضي عليه تمامًا.

ارتدَّت — بين دهشة الناس وفزعهم — عشرات القذائف الصاروخية، دون أن تحدث في جسده أثرًا حقيقيًّا، وإن أكد كثيرون — من الذين أتيح لهم المتابعة عن بعد — أنه بدأ يتململ في جلسته.

أعلنت القوات المسلحة عجز وسائلها عن القضاء على المخلوق الغريب، أو حتى محاولة إعادته إلى البحر الذي لا بد أنه أتى منه ... ولبث المخلوق في موضعه هادئًا، ساجي العينين. وتشجع الناس، فاقتربوا منه. وتحوَّل — بمضي الأعوام — إلى مظلة يحتمون بها، وعقدوا الصفقات، وقضوا الأمسيات، وبالوا وغاطوا وتمخطوا، ومارسوا الحب.

وفي تلك الأيام التي بدا فيها المخلوق جزءًا ثابتًا من حركة الحياة حوله، انتفض — فجأة — فسعى إلى الشاطئ المقابل، ونفض الماء حوله، فأغرق كل شيء.

(إبداع — فبراير ١٩٨٦م.)

القرار

بعد أن جاوزت الطابق الأول، قررت أن أصعد الدرجات ثانية. نقرت على باب الشقة التي كنت ألتقي بأصحابها — أحيانًا — عند دخولي البيت، أو مغادرته: رجل وامرأة وثلاثة أبناء، أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة. لا أعرف عن حياتهم شيئًا، وإن شغلني تمامًا ذلك النقاش الذي كان يدور — في غالبية الليالي — بين الزوجين، يمتد فيبدو كالشجار، يتداخل بتهديدات الرجل، وبكاء المرأة، وصراخ الأطفال. أقرر أن أتدخل، ثم أقلع عن قراري، امتثالًا لتقاليد الحياة اليومية، بعدم التدخل — ولو بالنظر — في شئون الآخرين.

طالت وقفتي — في الحقيقة — أمام الباب. كان ينبغي أن أتصرف على أي نحو: إما أن أضغط الجرس، أو أغادر المدخل الضيق. ربما انفتح الباب — فجأة — فلا أجد من الكلمات ما يسعفني في تبرير وقفتي.

قررت — من قبيل التأدب — أن أنقر الباب. لم يعد إلا أن يطالعني الزوج أو الزوجة أو أحد الأبناء، وجهًا لوجه هذه المرة، وليس بإحناء الرأس، والتساند إلى الحائط، مراعاة — لازمة — لقواعد الجيرة.

طالعني وجه الزوجة التي طالما أفسحت لها طريق الصعود والنزول مكتفيًا من أسلوب الحياة العصرية بهزة الرأس. لاحظت — لأول مرة — هذه الشامة على خدها الأيمن، فأضافت إلى جمالها المؤكد.

قلت لنظرتها المتسائلة: إني جاركم ... أسكن الطابق الأعلى.

قالت في هدوئها الباسم: أعرف!

– لماذا لا يزورني الأبناء ... فأساعد على التخلص من أعباء الدروس الخصوصية؟

التمعت عيناها بنظرة دهشة واضحة: تعينهم على المذاكرة بنفسك؟!

– وما المانع؟ ... لو أني تزوجت، فلعلي كنت أنجبت مثلهم.

أبدى إخوتي — في البداية — دهشتهم لموافقتي على أن أقيم في بيت شقيقتي عواطف. لي طبيعتي التي تفضِّل الصمت، وتميل للانطواء. هز أخي الأكبر عطية يده في عدم تصديق: لن تحتمل شقاوة أطفالها يومًا واحدًا.

أمَّن الأوسط علاء على رأيه: لن تجد مكانًا للقراءة أو لحفظ كتبك.

واصلت ترتيب ثيابي في الحقيبة. أختي عواطف تحتاج إلى رعايتي. مهم أن يكون في البيت رجل، صوته، أنفاسه، آراؤه، وتذكرت حالنا بعد وفاة أبي. فاجأتني عواطف بعرض الانتقال إلى بيتها، في اليوم التالي لسفر سامي — زوجها — إلى الكويت. أهملت تأكيد عطية بأن عالمي الذي لن أغادره، حجرتي الخاصة في بيت العائلة. قلبت الأمر فتغلب الإشفاق في النهاية. ظلت مكتبتي في بيت العائلة، وإن شغلتني صداقتي للأولاد، طبيعتهم التي لم أكن تعرفت إليها من قبل، مذاكرتهم، أسئلتهم الساذجة والغريبة والمحيرة. حتى ثيابهم وحاجياتهم الشخصية كنت أحرص على شرائها بنفسي ... بدت عواطف مطمئنة، تغادر الشقة — في زيارات — إلى البيت الكبير، تنزل الأسواق، يزورها — وتزور — الجارات، تهمل سؤال الأطفال عن المذاكرة، ترد على ملاحظاتهم وأسئلتهم وما يطلبون، بجملة تكاد لا تتغير: كلم خالك!

فاجأني عطية — يومًا — بالسؤال: ألا تنوي الزواج؟ كأنه دلني على طريق لم يعد السير فيها مما يشغل بالي. امتص الأطفال كل فراغ وقتي، أمسوا اللحظة والمستقبل والذكريات التي تخلو لها النفس بين الآخرين. وكنت أرجئ إجازتي السنوية لنهاية العام الدراسي، فأشرف على مذاكرتهم.

حين قال حمادة ما قاله، لم أصدق سمعي. الصغير الذي ربيته، أطعمته بيدي، أشرفت على ارتدائه ثيابه ونومه ومذاكرته، يطوح بأصابعه في غضب: لقد كبرت ... وأرفض أن يتدخل في حياتي أحد.

لاحظت عواطف حزني الصامت: معلهش يا عاصم ... فقد عاد أبوهم!

بدت الحياة سخيفة وبلا معنى. كرهت الليل والنهار والطريق والأحاديث والنظرات والاعتذار. اختلطت المرئيات، وعانيت صدود النفس، وإن ثابرت على البحث، حتى وجدت هذه الشقة المطلة على مسجد سيدي علي تمراز.

عندما غادرت البيت، لم يكن في نيتي أن أفعل ما فعلته، ولم أقدِّر أن تنتهي الأمور على نحو محدد. لي طبيعتي المسرفة في الإشفاق والتعاطف والمشاركة، أرضى ويزول الغضب

لمجرد البسمة أو الاعتذار، أو التبرير الذي يخلو من المنطق. مع ذلك، فقد قررت — منذ نقلت الأثاث من شقة عواطف في محرم بك إلى هذه الشقة — أن أحيط نفسي بأسوار العزلة، لا أُزار ولا أزور، ولا أخالط — إلا لضرورة — هؤلاء الذين ينبغي أن أفتح لهم باب شقتي، كالبواب والزبال ومحصل النور وما أشبه. أذكر أني وقفت بجسدي في طريق زوجة البواب، لما حاولت المواءمة بين دخول الشقة، والتأكيد بأن كرة طفل الشقة العلوية قد استقرت في بلكونة شقتي المطلة على الشارع الخلفي، واستأذنت كشاف النور في أن أترك له — على الباب — كل شهر بطاقة برقم العداد، واستبدلت مفتاحًا صغيرًا وعينًا سحرية بالمفتاح ذي «الفتحة»، فلا أتيح للجيران فرصة التلصص.

كان قراري حاسمًا، بأن تغيب تفصيلات حياتي الخاصة عن الأصدقاء. ولم يكن لي – في الحقيقة — أصدقاء بالمعنى الذي تعارف عليه الناس. أحادث الزملاء في العمل، أتبادل حوارًا مع الجالس قبالتي في ترام رقم ٤، يزورني إخوتي وأولاد أعمامي وأولاد أخوالي، فلا أغادر جلستي أمام ترابيزة السفرة في الصالة التي تتوسط الغرف الثلاث، أكتفي بالهمهمة، وربما الملاحظة البسيطة، والموافقة — أحيانًا — على تأكيداتهم بأن الشقة تحتاج إلى اليد التي ترعى وتنظف، فلماذا لا تفكر في الزواج؟ ... وكنت — فيما أطالعه — معجبًا بروبنسون كروزو في جزيرته العجيبة، كيف استطاع أن يواصل الحياة دون أنيس، فيما عدا تلك الحيوانات التي أخضعها لخدمته.

لكن اللحظة التي جاءت مغايرة لكل ما سبق، وبداية للآتي، شملتني بسرها الغامض، صحوت على تأثيرها المفاجئ عقب أذان الفجر في المسجد القريب، كأنها حلم أو هاجس أو جزء من حركة الطريق، البسملات والحوقلات والخطوات التي تسعى لأداء الصلاة، كأنها تلك الأصوات التي تدعوك، وأنت بين اليقظة والنوم ... ترد النداء، فتفاجأ بخلو المكان، تعود بالأمر إلى الغيبيات والأرواح والأسرار التي لا قبل لنا بفهمها. كأنه تأكيد باقتراب الرحيل، لا مرض ولا شبهة مرض ... أكد الطبيب — لما عرضت نفسي عليه — صحة الجسد ومتانته. نصح بأقراص مهدئة، لمجرد المساعدة — كما قال — في النوم، وطرد المخاوف ... لكن الخاطر، الهاجس، التحذير، الأمر ... تناهى مع الأصوات التالية لأذان الفجر، توضحت تفصيلاته في سمعي جيدًا. بدا لي الصوت حقيقة يصعب مقاومته، انصعت لها بكل خضوعي وإرادتي، فقررت أن أضع حدًّا فاصلًا بين الحالي والآتي، بين صورة حياتي الثابتة وما ينبغي أن تكون. أتخذ القرار نفسه، دون أن أخلو إلى نفسي، وأقلب الأمر، وأقارن، وأطرح السؤال: لماذا؟ كأن قوة في داخلي، أصاخت السمع للصوت الآمر، فبدت ملبية طائعة.

التقيت — وأنا جالس وحدي، أو في ظل الصوت الآمر، أو مع الآخرين — بأصدقاء طفولتي. لم تغادرهم ملامح التاسعة والثانية عشرة. شوارع محرم بك ومنشه وجرين والرصافة وترعة المحمودية ومكتبة البلدية تختلف عن الصورة التي ألفتها الآن، وإن كانت غير واضحة المعالم، كأنها تنبثق عن ضباب، فيغيب الكثير الكثير من الملامح والتفصيلات. قلت للولد حسن القناوي: كان فيه واحد صعيدي ... قاطعني: الصعايدة أسياد البلد! ... وحدثني أنور الملطاوي عن السفاح الذي يترصد لضحاياه في أشجار الطريق المطلة على المحمودية، رآه رؤية العين، قبل أن تلقي الشرطة القبض عليه. وأطلت نفوسة — كأنها البدر – من شباك شقتها في شارع جعفر. بدوا غرباء عن الناس الذين ألتقي بهم، اختلط الأشخاص والتصرفات والأحداث فلم أتبين — أحيانًا — ماذا جرى، ولا من الذي كنت أخاطبه.

مع أن زوجة البواب هي التي اقترحت أن أستعين بفاطمة — بعد أن لاحظت، ربما وهي تناولني من الباب ما تحتاجه شقتي من النظافة والترتيب — فإني قررت أن يتولى الأمر إخوتي أو أقاربي، مهملًا — في الحقيقة — ملاحظاتهم القاسية، مكتفيًا بجلستي على ترابيزة الصالة، فلا أرفع رأسي إلا بإيماءة، أو للرد المقتضب على ملاحظة، أو للتطلع بنظرة، أحرص — ما أمكن — أن تكون بلا معنى.

– أين فاطمة التي حدثتِني عنها؟

– تريدها فعلًا؟!

في هدوء حاسم: نعم.

– إنها تنظف بخمسة جنيهات شقة الطابق الأخير.

– فلتأتِ مرة واحدة ... وبأجر مضاعف.

وأتت فاطمة: فلاحة في نحو العشرين، شاطرة ومؤدبة وترضي إرادتي القديمة باحترام صمتي ... لكنني — بتلك القوة الغامضة المسيطرة — ناوشتها، سألت وناقشت، بادلتها الدعابة أحيانًا، تعرفت إلى ظروف الزوج الذي أقعده الشلل لسقوط السقالة على ظهره، والطفلين اللذين تحرص أن يتما التعليم إلى النهاية. أهديتها — في أول مرة — ساعة قديمة للزوج المقعد. قدمت لها — فيما بعد — طعامًا وثيابًا وأغطية. قررت أن أضاعف لها الأجر، فيصبح راتبًا شهريًّا.

أغفلت نظرة الدهشة التي طالعني بها المعلم شاكر بائع الهريسة أسفل البيت المقابل.

قاطع إشارتي إلى الطابق الذي أسكنه: جار عزيز.
– أتابع سخطك الدائم على غرامات أشغال الطريق.
– ما ذنبي لأدفع ثمن إهمال الزبال؟!
– لدي اقتراح بوسعي أن أنفذه لو وافق عليه الجيران من أصحاب الدكاكين.
قال الرجل في امتنان واضح: نحن في حاجة إلى مجهودات جارنا العزيز.

لحقت بي زوجة البواب قبل أن أبلغ الطابق الأول. سبقت كلماتها التماعة في العينين، وخطوط الفرحة دوائر على جانبَي الوجه. تحدثت عن طبيب الطابق الأول الذي دفعت له — في غيابه — قيمة إيصال النور، ونجاح أطفال الطابق الثاني في امتحان الفترة، وعذوبة أدائي لأذان المغرب في مسجد سيدي علي تمراز، وفتح الشرفة المطلة على شارع رأس التين، ومتابعتي صيد «المياس» — ساعة العصر — في الميناء الشرقية، والمارة والباعة في ميدان الخمسة فوانيس.
قلت، وأنا أطمئن إلى موضع المفتاح.
– تصلحين مخبرًا!

أرهفت سمعي جيدًا. بدا الصوت المميز غائبًا في أصوات ما بعد أذان الفجر. قمت من فراشي، وفتحت النافذة، وحاولت التأكد. طلت الأصوات في تناقضها وتآلفها — المحدد، فلا يبين الصوت الهامس عن نفسه.
تكرر — في الأيام التالية — ترقبي، وإنصاتي المرهف ... لكن الصوت — الذي أعرفه جيدًا — كان قد اختفى.

قررت أن أحيا.

(أكتوبر — فبراير ١٩٨٦م.)

المستحيل

حين تناهى الصوت، للمرة الأولى، عبر النافذة المغلقة، بدا له غير مألوف. يختلف عن تلك الأصوات الزاعقة التي اقتحمت — لسنوات — حياته. فلما أغلق النافذة، تغلفت بالهمس، وتطوحت إلى بعيد. كأنه تحطم أشياء، أو صرخات مكتومة، أو استغاثة مبهمة الكلمات.

جلس، وأرهف سمعه مضت أعوام على إغلاق النافذة، فذوت صورة الحياة في الخارج، بهتت ملامح الحركة الغائبة. أشفق على التطلع من الخصاص. ترك للخيال الاستعادة وامتدادات التصور. مواكب الأفراح والموالد والطرق الصوفية، مقهى «الاتحاد» بمناقشاته ونداءاته وسهره إلى نهاية الليل، حلاق الجمال ذو الباب الضيق، تحجب داخله ستارة من حلقات الخشب الملون، الفرجة المتسلية على صيد الجرافة، رذاذ الموج على كورنيش الميناء الشرقية، باعة السمك في مدخل السيالة، الجماعات الوافدة، قدمت من أماكن مجهولة، فاستوطنت الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلي، عربات الخس والترمس والباعة السريحة وترام رقم ٤ والملاءات اللف والفساتين والبيجامات والجلاليب والأحذية والشباشب الزنوبة والأقدام الحافية.

رجح أن يكون الصوت صرير عجلات عربة كارو في انحناءة الطريق ... لكن الصوت ظل على تواصله، فاطمأن إلى أنه صوت آلة حفر في بناية قريبة.

خفت الصوت وتلاشى، فتناسى ما حدث. عاد إلى عالمه، ينام ويصحو ويأكل ويقرأ ويغني ويتأمل، ويرنو إلى قادم الأيام بنظرات مسترخية.

لم يكن أمامه سوى أن يغلق النافذة. تلاغطت الأصوات: الزعيق والشجار والكلاكسات ونداءات الباعة. في الليل، يتعالى الهدير من المقهى القريب: مناقشات ودعابات وضحكات وشتائم، وترديد الجرسون لطلبات الزبائن، والراديو الذي يواصل برامجه إلى نهاية الليل، يختلط بدعوات ما قبل أذان الفجر في المرسي أبي العباس. ثم تهدأ الحركة، ويسود

الصمت، يعمقه تكاثف الظلمة قبل طلوع الصباح. يتهيأ لإغفاءة، فيضع الصخب الذي يبدأ — بالتدريج — دورته اليومية، عناق النوم في إطار المستحيل.

دانت الغلبة للمشاجرات — فيما بعد — على صخب الطريق. علت أصوات الشتائم وضرب الكراسي والنبابيت والشوم وسرينة سيارات الشرطة والإسعاف التي تُقبل — في الأغلب — عقب انتهاء كل مشاجرة.

قال له الحاج إبراهيم الخليل، بائع الحلوى في ناصية البوصيري: كأنك أهملت مشكلاتنا مع الجماعات الوافدة؟!

لم يخفِ استياءه: كنت أواجه المشاجرات بمفردي!

– نقدِّر ما فعلت. ولكن الأحداث تحت نافذتك.

– أزمعت أن أغلق النافذة.

خفتت الأصوات، في اللحظة التالية لإغلاق النافذة، بما أشعره أنه قد انعزل — أخيرًا — عن الدنيا الصاخبة حوله. يستطيع الآن أن يمضي أيامه في هدوء، لا تشغله الأصوات التي علا صخبها. داخله شعور أنه يمتلك بيته. نزع بيجامته، تمشى بثيابه الداخلية، تقلب في السرير، تصفح كتابًا، وأعاده إلى موضعه، فتح الراديو. فنقلته نشرة الأخبار إلى العالم الذي كان قد قرر تناسيه. التصق بالصمت تمامًا ونام.

تعددت الأوقات التي يتصاعد فيها الصوت — تساوى الليل والنهار، فبدا مستمرًّا. علا كأنه دوي المدافع. تسلل إلى نفسه خوف، فطرد فكرة الاقتراب من النافذة، ومحاولة التطلع إلى ما يجري في الخارج. أهمل الكتب التي كان قد بدأ في قراءتها. شغله الصوت، فلم يعد أمامه ما يفعله.

ضايقه السؤال الذي تراقص أمامه، وهو يخطف ساندويتشًا: لماذا أغلق النافذة إذن؟

اطمأن إلى تساند الأثاث على الباب المغلق. تكوم فكاد يغطي المدخل. زاد من شحوب أصوات الطريق، تلاشى غالبيتها، فلم يعد يصل إليها منه شيء. بدت الحياة – خلف النافذة — ساكنة، لا زعيق ولا مشاجرات ... رقت الأصوات تمامًا، كأنها وشوشات النخيل في الميناء الشرقية.

تنبه — مصادفة — إلى النافذة المغلقة — من السهل على مصدر الصوت اقتحامها. كان الباب قد تغطى بكل ما في البيت من أثاث. دفع السرير أسفل النافذة، وضع — من فوقه — المكتبة وأدوات المطبخ. اكتفى لنومه بحيز على حافة السرير. لم يعد بوسعه التقلب، أو القراءة على الطاولة الصغيرة التي شكلت — مع بقية الأثاث — جدار الباب المغلق.

علا الصوت وعلا. ارتج السقف والجدران، واهتز السرير من تحته. جرى — بتلقائية — ناحية الباب. امتدت يداه كأنه يتقي سقوط النافذة. التف حول نفسه، وتضاءل، وانكمش. حاصرته الوحدة فبكى، أطلق صيحة فزع لما تهاوى الأثاث وراء النافذة، وأطل المجهول — في الظلام — بنظرات ثابتة.

(الحرس الوطني — يناير ١٩٨٧م.)

هل؟! ...

(١)

علا صوتي – مهددًا — في غضب. تلاحقت الوخزات في صدري، حادة قاسية، فأغمضت عيني.

(٢)

قال الطبيب: ربما الوفاة جنائية، ولا بد من تشريح الجثة!

همس سليمان ابن عمي، في أذن شقيقي الأكبر محروس.

– أعطِ الطبيب شيئًا، فيأمر بدفن الجثة دون تشريح.

قال محروس في أسف: ومن أين؟ ... همي الآن أن أدبر تكاليف الجنازة!

(٣)

بدا سليمان ملمًّا بأحوال الموتى والجنازات والدفن. اشترط على الحانوتي أن يكون الكفن ستة أثواب من الحرير، ويرعى الله في الغسل، فلا يبقى من «السانلايت» حتى البروة، ولا يدس في حقيبته زجاجة ماء الورد، قبل أن تفرغ تمامًا، ويبسمل ويحوقل، ويتلو ما بوسعه من أدعية.

(٤)

سار في الجنازة أقارب وأصدقاء وجيران وزملاء عمل. ترددت الشهادتان، وإنا لله وإنا إليه راجعون. جرت الصلاة على الجثمان في المسجد القريب من البيت. رافق النعش — في الطريق إلى القرافة — محروس وشقيقي الأوسط سلامة وسليمان ابن عمي. تعالى

«صوات» امرأة عابرة لمجرد المشاركة. صرخت أمي في ألم: أيُّ تقاليد تحول بين أمٍّ ومرافقة ابنها إلى قبره؟!

(٥)

كان التربي قد انتهى — قبل وصول السيارة — من رفع «المجاديل»، وتهيئة القبر. غلبت الآلية على تلاوة القارئ، فنهره محروس: احترم التلاوة، فنحن ندفع لك!

(٦)

أصرت أمي أن تلمس الكفن بيدها، قبل أن يدخل القبر. احتضنته بأصابع متشنجة، فكادت تمزقه. تصورت — بإصرارها — أنها ستنزل. أحاط معي بكتفيها محروس وسلامة، حتى أعاد التربي «المجاديل» إلى موضعها، وأغلق القبر.

(٧)

بدت الظلمة كابية، فتلاشت الأصوات تمامًا، فيما عدا صوت جرذ، عاد — بعد إغلاق القبر — إلى مألوف حركته.

(٨)

تحركت أيد بالمجاديل، فغادرت موضعها. تسلل نور، وصوت التربي ينفذ إلى الداخل: تأكد أن أحدًا لن يمر، حتى أفرغ من نزع الكفن.

(٩)

قررت أن أمنعه. دبر محروس ثمن الكفن بالكاد، وأصر سليمان أن يكون ستة أثواب من الحرير، واحتضنت أمي الجثمان، قبل أن يتوسد التراب.

اقتربت الخطوات بطيئة حذرة. حاول أن يعالج الكفن بأصابعه لدقائق، ثم تعالى صوته الهامس: ناولني مطواة ... أخشى أن يتمزق الكفن!

ومضى في اتجاه النور.

(١٠)

غاب التربي، وإن بدت أنفاسه قريبة. لو أني تحركت بصورة ما، فلن يجازف بالاقتراب. إصبعي أو عيني أو فمي، حركة خاطفة يلمحها، فلا يقوى على فعل شيء، يعدل عن محاولته، ويظل جسدي مستورًا.

فهل أحاول؟ هل أحاول؟

(القصة — يناير ١٩٨٦م.)

هنـــداوي